315518 ـ استجابة دعاء المذنب

السؤال

أريد الجمع ما بين أن الذنوب تمنع إجابة الدعوة ، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم عند الحاكم والإمام أحمد : (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها)، قالوا: إذا نكثر، قال: (الله أكثر) " ؟ فكيف نعرف أن الدعاء لم يستجب ؟ أو إنه استجيب ولازال تحقيقه لم يأت، أو تم ادخاره أو دفعت به مضرة؟ وهل الذنوب على الاضطراد تمنع قبول الدعاء، فكيف والله يقول : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)، وما من مضطر إلا وأغلبهم عصاة يطمعون فى كرم الملك تبارك وتقدس بالعفو والمغفرة، فلو أن المعصية تحجب فكيف يتقبل الله دعائهم ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ رواه الترمذي (3573) وقال: "وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ ."

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا .

قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ رواه الإمام أحمد في "المسند" (17 / 213)، وقال الشيخ الألباني "حسن صحيح" كما في "صحيح الترغيب والترهيب" (2 / 278).

وينظر للفائدة حول ذلك: جواب السؤال رقم : (153316).

وقد ورد أن بعض الذنوب لا يستجاب دعاء صاحبها، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ رواه مسلم (1015).

وكما في حديث حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ رواه الترمذي (2169)، وقال: " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ".

ولم نقف على ما يفيد أن المعاصي تمنع إجابة الدعاء، هكذا على العموم، أو أن دعاء كل مذنب مردود غير مستجاب؛ بل نفس حديث أبي هريرة السابق ليس صريحا في المنع من إجابة دعاء المذكور فيه مطلقا، بل فيه بعد ذلك، مع أن ذلك البعيد قد يحصل لأمور أخرى ترجح جانب الإجابة فيه.

قال ابن رجب رحمه الله:

"وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (فأنَّى يستجاب لذلك) ، معناه: كيف يُستجاب له؟

فهوَ استفهامٌ وقع على وجه التَّعجُّب والاستبعاد، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة، ومنعها بالكلية.

فَيُؤْخَذُ من هذا: أنَّ التوسُّع في الحرام، والتغذي به: من جملة موانع الإجابة.

وقد يُوجد ما يمنعُ هذا المانع من منعه.

وقد يكونُ ارتكابُ المحرمات الفعلية مانعاً من الإجابة أيضاً.

وكذلك ترك الواجبات، كما في الحديث: أنَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع استجابة دعاء الأخيار" انتهى، من "جامع العلوم والحكم" (1/293).

ثانيا:

وعلى ذلك؛ فكل مسلم مأمور بالدعاء، وأن يكون دعاؤه بتضرع وخشوع وإخلاص.

قال الله تعالى: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الأعراف/55 – 56.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

" وتأمل كيف قال في آية الذكر: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) الآية. وفي آية الدعاء: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) فذكر التضرع فيهما معا وهو التذلل، والتمسكن، والانكسار وهو روح الذكر والدعاء " انتهى من "مجموع الفتاوى" (15 / 19).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى:

" (وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا) أي: خوفا من عقابه، وطمعا في ثوابه، طمعا في قبولها، وخوفا من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاهٍ " انتهى من "تفسير السعدي" (ص 292).

والمذنبون على أحوال فمنهم من لم يبلغ في ذنوبه إلى حد الغفلة وذهاب الخشوع في عباداته والخشية من ربه؛ فهذا إذا قام بدعاء بخضوع كما أمره الله تعالى وبخشية؛ فلا شك أنه قد قام بعمل صالح؛ والله لا يضيع الصالحات، قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا الكهف/30 .

فالظاهر أنه يتناوله عموم حديث عبادة بن الصامت وأبي سعيد في إجابة الدعاء.

ومن المذنبين من أفرط في المعاصي؛ حتى فقد خشوع العبادة والخشية من ربه؛ فيدعو بغفلة وعدم خشوع؛ فهذا يخاف عليه؛ لعدم تحقيقه شرط الدعاء من الخضوع والخشوع.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ رواه الترمذي (3479)، وحسنه الشيخ الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (2 / 286).

لكن هذا إذا ورد عليه حال يضطره للخشوع كالمضطر والمظلوم؛ فهو داخل في وعد الإجابة؛ لأنه عمل صالحا؛ كما يدل عليه قوله تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ النمل/62.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ، فَقَالَ: اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ رواه البخاري (2448)، ومسلم (19).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ رواه أبو داود (1536)، والترمذي (1905)، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ".

قال التوربشتي رحمه الله تعالى:

" واختصاص هؤلاء الثلاثة بإجابة الدعوة لانقطاعهم إلى الله بصدق الطلب، ورقة القلب، وانكسار البال، ورثاثة الحال؛ أما المسافر فلأنه منتقل عن الموطن المألوف، ومفارق عمن كان يستأنس به، مستشعر في سفرته من طوارق الحدثان، فلا يخلو

ساعتئذ عن الرقة والرجوع إلى الله بالباطن. وأما المظلوم فإنه متقلب إلى ربه على صفة الاضطرار " انتهى من "الميسر في شرح مصابيح السنة" (2 / 519).

وينظر للفائدة : جواب السؤال رقم : (84912).

والله أعلم.